مفتتح

المُعجِزةُ كَفِعلٍ تَجاوزِيّ

رئيس التحرير

د.محمد محمود مرتضى

منَ المعلومِ أنَّ لفظَ "المُعجِزة" لم يَرِدْ في القرآنِ، وأنَّ لفظَ المُعجِزة هو مُصطلَحٌ نحتَهُ المُتكلِّمونَ، وقَصدوا به ما عُبِّرَ عنه في القرآنِ بكلمةِ "آية"، التي أُريدَ منها تلكَ العَلامةُ التي تُشكِّلُ دَليلاً على صِدقِ دَعوى النبيِّ.

فلماذا احتاجَ ادِّعاءُ النُّبوّةِ علامةً؟

إنَّ النبيَّ يدَّعي وجودَ علاقةٍ بعالَمِ الغَيبِ، ولا شكَّ أنَّ مثلَ هذا الادِّعاءِ يَحتاجُ إلى إثباتٍ؛ إذ لا يَكفي فيه مُجرَّدُ الدَّعوى، وإلا لم يكنْ بالمَقدورِ تَمييزُ الصّادقِ من الكاذبِ؛ مِن هنا كانَتِ المُعجزةُ هي الدَّليل على صِدقِ كلِّ نبيٍّ في دَعواهُ تلك. وقد عبَّرَ العُلماءُ عن الآيةِ بالمُعجزةِ، باعتبارِ أنَّ المُعجِزةَ عملٌ يَعجزُ بقيّةُ النّاسِ عن الإتيانِ بمثلِه. وقد تحدَّى الأنبياءُ عليهم السلام أُممَهم بأن يَأتوا بمِثلِها، فلم يَستطيعوا ذلكَ، فتكونُ المُعجِزةُ أو الآيةُ قد أظهرَت عَجزَهُم.

والواقعُ أنَّ الحديثَ عن المُعجِزةِ مُتشعِّبٌ، وقد كثرَ في الآونةِ الأخيرةِ من ناحيتَينِ:

الأولى: في الدِّراساتِ الغربيّةِ، سواءٌ تلكَ المُتعلِّقةُ بنَقدِ الكتابِ المُقدَّسِ، أو التي تُحاولُ نقدَ المُعجزةِ من ناحيةِ الفَلسفةِ المادِّيّة.

والثانية: في بعض الدِّراسات العَربيّة الحَداثيّة، التي ذهبَ أصحابُها في سبلٍ شتَّى، لا سيَّما ذلكَ التيّارُ الذي سَعى لإنكارها، مُنطلقًا من عدمِ ذكرِ القرآنِ لأيِّ مُعجزةٍ حسِّيةٍ جاءَ بها النبيُّ محمَّد ﷺ، شَبيهةٍ بمُعجزاتِ الأنبياءِ السّابقينَ.

فالقرآنُ الذي هو قَطعيُّ الثُّبوتِ، عندَ جميعِ المُسلمينَ، نجدُه يُثبتُ كثيراً من المُعجزاتِ الحسِّيّةِ للأنبياءِ السّابقينَ، مُؤكِّدًا حصولَها ضمنَ سياقِ الاحتجاجِ معَ غيرِ المُؤمنينَ، باعتبارِ أنَّ مشروعيّةَ نبوّةِ النبيِّ محمَّد ﷺ مُحتواةٌ في مشروعيّةٍ أعمَّ، وهي صِدقُ نُبوّةِ الأنبياءِ السّابقينَ في إطارِ الدَّعوةِ إلى التَّوحيد.

على أنَّ الرأيَ الغالبَ أنَّه من شروطِ كونِ الشَّيءِ مُعجزةً أن يكونَ عَملاً غيرَ بشريٍّ؛ بمَعنى أنَّ المُعجزَ هو الفعلُ الخارجُ عن سَنخِ العملِ البَشريِّ، وفوقَ حُدودِ القُدرةِ الإنسانيّة، وأنَّ هذا ما نراهُ في معجزاتِ الأنبياءِ عليهم السَّلام، السّابقينَ على نبيِّ الإسلامِ محمَّد ﷺ؛ فمن طبيعةِ الماءِ أن يَسيلَ، أمّا إيقافُه كالجدارِ، حتَّى يمَرَّ مُوسى ومَنْ معَه، ليس عملاً بشريًّا، بل هو عملٌ خارجٌ عن قُدرةِ البشرِ وطاقتِهم، وهكذا.

فيَتبيَّنُ لنا أنَّ المُعجزةَ هي فعلٌ وأثرٌ يأتي به النبيُّ للتحدِّي؛ ليكونَ علامةً على وجودِ قُدرةٍ ما وراءَ الطَّبيعةِ، تَفوقُ حدودَ الطّاقةِ الإنسانيّةِ بشكلٍ عامٍّ.

والواقعُ إنَّ هذا الكلامَ يمُكنُ المُحاجَّةُ بصحّةِ إطلاقِه بهذه الطَّريقة؛ إذ لا نُسلِّمُ بالنَّفي المُطلَقِ لكونِ المُعجزةِ عملاً بشريًّا؛ لأنَّ الكثيرَ من المُعجزاتِ، التي أتى بها الأنبياءُ، كانَت تتمُّ بواسطةِ مباشرةِ النبيِّ للفعلِ المُعجزِ: فإبراهيمُ عليه السلام هو الذي أخذَ الطُّيورَ ووقَطَّعَها، ووضعَها على الجبالِ، ثمَّ دَعاها، فأتَت إليه سَعيًا بعدَ عَودتِها إلى الحياة، وعيسى عليه السلام هو الذي كان يُباشرُ فِعلَ المَسحِ لشفاءِ المَرضى أو إحياءِ المَوتى، كما إنَّ موسى عليه السلام هو الذي رفعَ عَصاهُ، وأشارَ بها إلى البَحرِ فانفلقَ.

وهذا يَعني أنَّ النبيَّ يمُثِّلُ جزءًا من الفعلِ المُعجزِ. نعمْ، يَنبغي الاعترافُ أنَّ هذا الفعلَ لم يكنْ بقُدرةٍ نبويّةٍ مُستقلّةٍ عنِ اللهِ -سبحانه وتعالى- وإنَّما بقدرةٍ مُستمَدّةٍ منه تعالى، من خلالِ تحقُّقِ النبيِّ بمَقامِ القُربِ والولايةِ. ولَمّا كانَ الهدفُ من المُعجزةِ إثباتَ دَعوى النُّبوّة، كانَ من الضَّروريِّ أن تكونَ مباشرةُ النبيِّ للفعلِ داخلةً في الفعلِ المُعجزِ، إذ إنَّ تحقُّقَ المُعجزةِ

من الله مباشرةً، دونَ تدخُّلٍ من النبيِّ كمُباشرٍ للفعلِ، قد يَدفعُ الكثيرينَ لادِّعاءِ النبوّة، بالزَّعمِ بأنَّ الفعلَ الواقعَ هو فعلُ اللهِ لهم. بمَعنى أنَّ إحياءَ المَوتى لو تمَّ من اللهِ مباشرةً، دونَ أيِّ فعلٍ قامَ به عيسى ﷺ، فكيفَ يَقومُ الدَّليلُ هنا على نبوّةِ عيسى، فيما بالإمكانِ أن يقومَ شخصٌ آخَرُ بادِّعاءِ النبوّة، ويُقدِّمَ فعلَ إحياءِ المَوتى كدليلٍ على نُبوّته؟!

ويَجري الأمرُ نفسُه في العذابِ الذي كان يَنزلُ ببَعضِ الأقوام، من حيثُ إخباراتُ الأنبياءِ عن حصولِ هذا الأمرِ؛ فتكونُ المَعرفةُ الغَيبيّةُ دَليلاً على النبوّةِ أيضًا.

على أنَّ الحديثَ عن المُعجزةِ لا يُفضي إلى البَحثِ عن طبيعةِ العلاقةِ بينَ اللهِ والطَّبيعةِ فحسب، بل إلى العلاقةِ بينَ اللهِ وأنبيائه، وهي علاقةٌ لا يُمكنُ تَجاهُلُها في إطارِ فَهمِ المُعجزةِ، باعتبارِ أنَّها تُعبِّدُ الطَّريقَ لفَهمِ علاقةِ اللهِ ببعضِ البشرِ من غيرِ الأنبياءِ، ممَّن يُمكنُ أن تَجري على أيديهم بعضُ الأفعالِ الخارقةِ، ممّا يُطلَقُ عليها اسمُ "الكرامات".

والحديثُ عن الفعلِ المُعجزِ، يَفتحُ البابَ للسُّؤالِ عن حقيقةِ فاعليّته - تعالى - في الطَّبيعةِ، وماهيّةِ نظامِها المَبنيِّ على ترتيبِ المُسبَّباتِ على الأسباب، وحقيقةِ ثباتِ قوانينِها وإمكانيّةِ الخُروجِ عنها من قِبَلِ الإنسان؛ بحيثُ تكونُ جميعُ الأشياءِ مُحدَّدةً بقوانينَ شاملةٍ في الطَّبيعةِ، تَحكمُها الضَّرورةُ والحَتميّةُ.

كما إنَّ بعضَ المُتكلِّمينَ نَظروا إلى فعلِ اللهِ على أنَّه مُخالفٌ للطَّبيعةِ دائمًا، ومُتجاوزٌ لها باستمرارٍ، فقد نفَوا قوانينَ الطَّبيعةِ بالكاملِ؛ اعتقادًا منهم أنَّ إثباتَ هذه القوانينِ انتقاصٌ من قُدرةِ اللهِ، وإثباتٌ لشريكٍ آخَرَ معَ اللهِ في الفعلِ. وذهبوا إلى أنَّ قدرةَ اللهِ وحدَها هي الفاعلةُ الوَحيدةُ لكلِّ شيءٍ في الكونِ، مع استبعادِ الأسبابِ الطَّبيعيّةِ. فنفَوا فاعليّتَها وقُدرتَها على إنتاجِ مُسبَّباتِها. فقُدرةُ اللهِ - تعالى - مُتجاوزةٌ للطَّبيعةِ باستمرارٍ، وإنَّ وجودَ اللهَ يَنفي كلَّ تأثيرٍ وفاعليّةٍ ذاتيّةٍ في الطَّبيعةِ، ويُنكِرُ ضَرورتَها.

وهذا يَجعلُنا نتوصَّلُ إلى أنَّ بعضَ المدارسِ الكلاميّةِ لم تفعلْ شيئًا سوى أنَّها نقلَت تصوُّراتِ العامّةِ واعتقاداتها المُسبقةَ وتَحامُلاتها إلى علمِ الكلامِ، ووضعَتْها في صورةٍ نظريّةٍ كلاميّةٍ. فالعامّةُ يَظنُّونَ أنَّ قدرةَ اللهِ وغايتَه تَظهرانِ بأوضحِ صُورةٍ مُمكنةٍ إذا حدثَ في الطَّبيعةِ - على ما يَبدو - شيءٌ خارقٌ لها، وهم يَعتقدونَ أنَّ أوضحَ بُرهانٍ على وجودِ اللهِ هو

الخروجُ الظّاهرُ على نظامِ الطَّبيعة؛ ولذلك نجدُ بعضَ المَدارسِ الكلاميّةِ فسَّرَت المُعجزةَ، بما أنَّها فعلٌ إلهيٌّ مباشر، على أنَّها "خرقٌ لنِظامِ الطَّبيعةِ"، يُجريه على يدِ مَن يَشاءُ من عبادِه.

وفي الجانبِ الآخَرِ، نجدُ الفلاسفةَ المُسلمينَ قد نظَّروا لنِظامِ العِلّةِ والمَعلولِ وأُسُسه الحَتميّةِ وقوانينِه التي لا يتخلَّفُ فيها المَعلولُ عن عِلّتِه التامّة، فواءَمُوا بينَ التَّفسيرِ الطَّبيعيِّ والعَقليِّ للأشياءِ، وبينَ ارتباطِه وجوديًّا بالله تعالى، واعتبروا المُعجزاتِ فعلاً غيرَ مُناقضٍ للنِّظامِ الكونيِّ الطَّبيعيِّ، وإنَّما هي أفعالٌ خارقةٌ لما اعتادَه الإنسانُ وشاهدَه من أنظمةٍ مَأنوسةٍ لَديه. بخلافِ ما تصوَّرَتْه بعضُ المدارسِ الكلاميّةِ عن المُعجزاتِ الإلهيّةِ، بأنَّها تدخُّلٌ فوقُ - طبيعيٍّ في مسارِ الطَّبيعةِ، لإحداثِ شَيءٍ خاصٍّ لحالةٍ خاصّة. فاللهُ لا يَفعلُ في الطَّبيعةِ ما دامَت تَسيرُ على نِظامِها المُعتاد، وبالعكسِ تَبطُلُ فاعليّةُ الطَّبيعةِ وعِلَلُها الثّابتةِ عندَما يَفعلُ اللهُ. وعلى ذلك فهم يتخيَّلونَ قُدرتَينِ مُتميِّزتَينِ، إحداهُما عن الأُخرى، من حيثُ العَددُ: قُدرة اللهِ وقُدرة الأشياءِ الطَّبيعية.

فرَفضَ الفلاسفةُ المسلمونَ أن يكونَ الخروجُ عن السَّببيّةِ دليلاً على وجودِ الله، وأن تكونَ مُخالفةُ قانونِ الطَّبيعةِ دَليلاً على إرادة اللهِ، فالقُدرةُ الإلهيّةُ – بنظرِهم - ليسَت مُناقضةً ولا مُعاكِسةً، ولا هي بعَرَضِ قوانينِ الطَّبيعةِ، وإنَّما قوانينُ الطَّبيعةِ هي في طولِ القُدرةِ الإلهيّة.

فالطَّبيعةُ هي فعلٌ مِن اللهِ ومِن خَلقه، لا فعلٌ مُضادٌّ له، يَتجاوزُها ويُوقفُ عملَها. فقوانينُ الطَّبيعةِ الشّاملةُ، التي تَحدثُ في كلِّ شيءٍ، ويتحدَّدُ الشَّيءُ طبقًا لها، ليسَت سوى أوامرِ اللهِ الأزليّةِ التي تَنطوي على حقيقةٍ وضرورةٍ أزليّةٍ.

إذاً، لو قُلنا إنَّ كلَّ شيءٍ يَحدثُ طبقًا لقوانينِ الطَّبيعةِ، أو يَنتظِمُ بحُكمِ اللهِ أو بأمرِه، فإنَّنا نقولُ الشَّيءَ نفسَه. أمّا المُعجزاتُ الإلهيّةُ، باعتبارِها خارقةً للعادةِ، فما هي إلا أفعالٌ نجهلُ أسبابَها، ولا نَستطيعُ إدراكَ عِلَلِها بطُرقٍ عاديّةٍ مأنوسةٍ لَدينا.

ومَهما يكنْ من أمرٍ، فإنَّ من شروطِ المُعجزةِ ومُقتضياتِها: الدَّيمومةُ، ونقصدُ بها أنَّ الفعلَ المُعجزَ سيَبقى مُعجزاً إلى الأبدِ، ولن يَنقلِبَ إلى أمرٍ عاديٍّ مع تطوُّرِ البَشرِ وتقدُّمِهم العِلميِّ. على أنَّ ملاكَ الدَّيمومةِ هذا لا يَرتبطُ فقط بنَفسِ الفِعلِ، وإنَّما في أدواتِه؛ كعَصا

مُوسى في فَلَقِ البحرِ، والمَسحِ باليَدِ فقط في فعلِ عيسى عليهما السلام. وبهذا المَعنى فإنَّ المُعجِزةَ ستَبقى مُتجاوزةً للزَّمنِ.

وعلى أيٍّ حال، لقد جاءَ هذا العددُ من مَجلّةِ (اعتقاد)، ليُعالِجَ قضيّةَ المُعجِزةِ، وما يَقرُبُ منها ممّا يُسمَّى بالكراماتِ، ويُجيبُ عن مجموعةٍ من الأسئلةِ والإشكالاتِ التي طُرِحَت حولَها، وفي هذا السياق أتت مقالة "حجِّية الشُّهود والكرامات في ميزان أصول الفِقه"، كي تجيب عن سؤال الحجيّة للمعرفة الحاصلة عن طريق تجربة الكشف والشهود الوجداني، ومدى دخالتها في عملية الاستنباط الفقهي أو الكلامي أو الفلسفي، لتصل في خاتمتها إلى ضيق دائرة حجية هذه التجارب إلا إذا توافقت مع برهان العقل ومقطوع النقل.

وفي جانب آخر تناولت مقالة "الإذنُ ووِلايةُ التصرُّف في الفِكر العِرفانيّ -دراسة دَلالية-" دور صاحب الفعل الخارق الكوني وحظه في كينونته الخارجية، ثم بيّنت عدم خلو هذه الأفعال من ارتباطها الوجودي بالله -تعالى- حدوثًا وبقاءً، وأنه لا يمكن لأي متصرّف في الكون على نحو الولاية الاستقلال عن الله الخالق بأي نحو من أنحاء الاستقلال الوجودي.

ولم يغفل محور العدد اللوازم الاجتماعية للأفعال الخارقة المدعاة من قِبَل أصحابها، فجاءت مقالة "جَدَلُ "المعُجِز" و"الخارق" وأثرُه في نشوء الحركات الدِّينية المنُحرفة - (البابية والبهائية) نموذجًا"، لتناقش مُثبتيّة الفعل المعجز أو الكرامة وما يشبهها لدعوى أصحاب المذاهب الدينية المفترضة في حقانيّتها، مع الأخذ بالاعتبار ما تواجهه من ردود من تيارات مناهضة لها تدّعي المثبتيّة نفسها، لتخلص المقالة إلى وضع مقاربة منهجيّة عقديّة في تبيان الفرق بين الدعاوى الباطلة وبين دعاوى الأنبياء أصحاب المعجزات.

وفي مقام نقد المذهب المادّي التوافقي لظاهرة المعجزات، تصدّت مقالة "المعُجزة في ضوء القراءة المادِّية للتّاريخ - دراسة تحليلية"، لمحاولة هذه المدرسة إيجاد تفسير تجريبي لما قام به الأنبياء من خوارق، بعد أن لم تستطع إنكارها، نتيجة تواتر المرويات التاريخية التي اتهمتها بـ تضخيم الحدث وجعله مقدّسًا.

وفي السياق نفسه قام كاتب مقالة "النَّقد الفلسفيُّ والتّاريخيُّ لنظريّةِ (هيوم) حول المعُجِزات" بدحض إنكار ديفيد الهيوم للمعجزات بالكليّة، من خلال ادعائه -هيوم- خلوّ

هذه الأفعال من أي دليل برهاني سوى مرويّات الشعوب البدائيّة ونقولات شفويّة غابرة. فردّ الكاتب على كل ذلك بإقامة الدليل العلميّ التاريخي والأركيولوجي على إثبات ما نُسب إلى الأنبياء من خوارق.

ولا تبعد مقالة "نَقْدُ ادِّعاءات اتِّساع الإعجاز في المُدوَّنات الحَديثيّة والتُّراثي(جورج طرابيشي إنموذجًا)" عن الجنبة البحثية المتناولة في المقالتين السالفتين، وإنما خصّصتها في دراسة نقدية لنفي جورج طرابيشي المعجزات الحسيّة للأنبياء بشكل عام، واعتقاده أن دور الأنبياء مقتصر على التبشير والإنذار ليس إلا.

خِتامًا، إنَّنا إذ نُقدِّم الشُّكرَ الكبير لـ(الشَّيخ شَادي علي) علَى مَا بذلهُ من جَهد علميّ وفكريّ في تَحرير المقالات، وَالَّذي كان من المُفترَض أن يكونَ معنَا في إدارة تَحرير المجلَّة ابتداءً من هذا العدد، ولكنَّ الرّياحَ لَم تَجر كما تَشتهي السُّفنُ، فكان من الوَاجب علينَا تَقديم جَزيل الشُّكْر وَالامتنان وَالتَّقدير والعرفَان له علَى مُساهمته هذه. وإنَّنا نَأملُ أن ينالَ هذا العدد إعجابَ القرَّاء، وأن يُقدّمَ الفائدَةَ المَرجُوَّة بإذن الله -تعالى-، وأن يُساهمَ في رَفد السَّاحة العلميَّة والثَّقافيَّة بأدوات النَّقد وَالتَّحليل لِمُوَاجهة التّيارات الفكريَّة الأُخرَى. والحَمدُ لِلَّه أولاً وآخرًا.